حركة العيارين والشطارين

— ٢ —

بقلم : الاستاذ عبد الجليل الطاهر
عضو البعثة العراقية في انكلترا

ويذكر ابن الأثير الاحوال والظروف السيئة التي يثورها فيها العيار ؛ حيث يفسد الحكم وينحل النظام ويسود الأرهاب من قبل الجند و ... « طمع الاتراك وآذوا الناس ونهبوا وقتلوا « وكثر تسلط الاتراك ببغداد فاكثروا مصادرات الناس واخذوا الاموال حتى انهم قسطوا على الكرخ خاصة ١٠٠،٠٠٠ دينار وعظم الخطب وزاد الشر ، واحرقت المنازل والدور والاسواق ، ودخل الطمع العامة والعيارين ، فكانوا يدخلون على الرجل فيطالبونه بذخائره كما يفعل السلطان بمن يصادره(١)

وحاول العيارون تبرير اعمالهم واكسابها صفة مشروعة بأن أدعوا ان ما يستولون عليه من اموال التجار هو زكاتها التي لم يعطها اصحابها. ولم يكن الشطار وغيرهم من اهل الشرور يعدّون اللصوصية جريمة وانما كانوا يعدونها صناعة يحللونها باعتبار ان ما يستولي عليه من اموال التجار الاغنياء زكاة تلك الاموال التي أوصى باعطائها للفقراء . » (٢) فيذكر التنوخي على لسان رجل : « كنت مسافراً ببعض الجبال فخرج علينا ابن سيار الكردي فقطع علينا وكان يزي الامراء .. فقربت منه انظر اليه واسمع كلامه فوجدته يروي الشعر ويفهم النحو ، فطمعت فيه وعملت ابياتاً مدحته بها . فقال لست اعلم ان هذا من شعرك ، ولكن اعمل لي على قافية هذا البيت ووزنه شعراً الساعة لأعلم انك قلته وانشدني بيتاً ، قال فعملت في الحال اجازة له ثلاثة ابيات. فقال لي : أي شيء اخذ منك لأرده عليك ؛ قال فذكرت له ما أخذ مني واستضفت اليه قماش رفيقين كانا لي فردّ جميع ذلك . ثم اخذ من اكياس التجار التي نهبها كيساً فيه الف درهم فوهبه لي .قال فجزيته خيراً ورددته عليه، فقال لي لِمَ لا تأخذه؟ فورّيت في كلامي . قال أحب ان تصدقني . فقلت وأنا آمن ؟ فقال نعم . قلت : لأنك لا تملكه وهو من اموال الناس اخذته منهم الساعة ظلماً فكيف يحل لي إخذه . فقال لي : اما قرأت ماذكره الجاحظ في كتاب اللصوص عن بعضهم قال : ان هؤلاء التجار لم تسقط عنهم زكاة الناس لأنهم منعوها وتجردوا فتركت عليهم فصارت اموالهم بذلك مستهلكة واللصوص فقراء اليها فان اخذوا اموالهم — وان كره التجارة — كان ذلك لهم مباحا لأن عين المال مستهلكة بالزكاة . وهم مستحقون اخذ الزكاة شاء ارباب الاموال أم كرهوا . فقلت بلى قد ذكر ذلك الجاحظ ولكن من أين نعلم ان هؤلاء استهلكت الزكاة اموالهم . فقال لا عليك أنا احضر هؤلاء التجار الساعة واريك بذلك دليلاً صحيحاً على ان اموالهم لنا حلال ، ثم قال لأصحابه ، هاتوا التجار فجاءوا فقال لأحدهم : منذ كم تتجر بهذا المال الذي قطعناه عليك ؛ قال : منذ كذا وكذا سنة . قال : فكيف تخرج زكاته ؟ فتلجلج وتكلم بكلام يفهم منه انه لا يعرف الزكاة على حقيقتها فضلا عن ان يخرجها . ودعى بآخر وقال له : اذا كان معك ٣٠٠ درهما وعشرة دنانير وحال عليك الحول فكم تخرج منها للزكاة ؟ فما احسن أن يجيبه . ثم قال للآخر ان كان معك تجارة ولك دين على نفسين أحدهما ملئ والآخر معسر ومعك دراهم وكان الحول حال على الجميع كيف تخرج الزكاة ؛ قال فما فهم السؤال فضلاً عن أن يتعاطى الجواب . فصرفهم ثم قال لي: بان لك صدق حكاية ابي عثمان الجاحظ ان هؤلاء التجار ما زكوا قط ، خذ الآن الكيس قال فاخذته وساق القافلة . » (٣)

إلا ان هذه القصة لا تبين انهم حماة للدين ؛ بل انهم يهجمون على المثرين باسم الدين ، فاعمالهم الفوضوية لا تدل مطلقاً على وجود فلسفة ولا على تحقيق فكرة ، غير النهب والسلب ؛ بل انا نراهم يتمادون الى اكثر من ذلك ، فيروي ابن الجوزي « كبس قوم من الدعاء المسجد الجامع ببراثا واخذوا مافيه من حصر وسجادات وقلعوا شباكا الحديدي » (٤) فالجامع ليس محلا لتكديس الثروات

(١) ابن الاثير ، ج (٩) ص (١٢٢ ، ١٦٢ ، ٢٠٧)
(٢) جرجي زيدان ، التمدن الاسلامي ج (٥) ص (٤٦)
(٣) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج (٢) ص (١٠٦)
(٤) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج (٨) ص (٥٥)

والاموال . (١) ويذكر ابن الجوزي العداء الطائفي والمذهبي بين العيارين انفسهم ، وكثيراً ما كان يغير الفريق على الآخر فينهب الاموال ويجبي الاسواق ويقتل النفوس (٢)

من كل ذلك يتبين لنا ان الاحساس بالظلم وبالحرمان لم يكن رباطاً وثيقاً يجمع بينهم ويوحد صفوفهم وذلك لفقدان الزعامة التي تستطيع ان تسير بهم على نهج قويم من التنظيم للمطالبة بحقهم في الحياة ولعدم وجود المنهج الاجتماعي الاقتصادي العام . وعلى الرغم من هذا الانحلال والتفسخ في حركتهم من اجل تحسين الاحوال المعاشية ، وانقسامهم انقساما شاقولياً مبدداً ، فاننا نتلمس العاملين الاقتصادي والسياسي بكل جلاء . فقد اجتمعوا مرة « وكانوا نحواً من خمسين وقفوا على باب دجلة بازاء دار المملكة وعليهم السلاح وبين أيديهم المشاعل وصاحوا بعد الدعاء للملك بأنا يا مولانا عبيدك العيارون وما نريد ابن النسوي والياً فان عدل عنه ، وإلا احرقنا وافسدنا وانصرفوا ، فخرج قوم منهم الى السواد ثم طلبوا فهربوا ثم عادوا الى الكبسات والعملات .»(٣)

ويظهر ان انتقامهم الشديد كان موجهاً ضد اولئك الذين كدسوا الاموال وجمعوا الثروات وتركوا الجماهير في فاقة وعوز ، فيقول التنوخي عن ابن حمدون : « . . وانه اذا قطع لم يعرض لاصحاب البضائع القليلة التي تكون دون الالف واذا اخذ ممن حاله ضعيفة شيئاً فشيئاً قاسمه عليه فترك شطر ماله في يديه . وانه لا يفتش امرأة ولا يسلبها . » (٤) ويروي ابن الاثير عن البرجمي الزعيم العيار « لم يعرض لامرأة ولا الى من يستسلم اليه . » (٥) ويذكر ابن الجوزي « وتضاعف فساد العيارين . وكثرت الكبسات والاستقفاء ، نهاراً ، ونقل الناس رحالهم الى دار الخلافة وباب المراتب وكان اللصوص يمشون بثياب التجار في النهار فلا يعرفهم الانسان حتى يأخذوه ، فاخذت خرق الصيارف وضاقت المعايش . وكان للعيارين عيون على الناس في النساء والرجال يطوفون الخانات والرحبه والصيارف والجوهريين فاذا عاينوا من قد باع شيئاً تبعوه واخذوا ما معه . » (٦) . « . . وكبست دار تاجر فاخذ منها ما قيمته ١٠٫٠٠٠ دينار وشاع انه لا يتعرض لامرأة ولا يمكن من اخذ شيء معها أو عليها . » (٧)

ويذكر ابن الاثير : « وفي هذه السنة [سنة ٤١٦ هـ] ظهر امر العيارين ببغداد وعظم شرهم فقتلوا النفوس ونهبوا الاموال ، وفعلوا ما ارادوا واحرقوا الكرخ وغلا السعر بها حتى بيع الكر الحنطة بمائتي دينار قاسانية » (٨) وكان الخلفاء والامراء وطلاب السلطة يسخرونهم في عداواتهم وحروبهم ، ونجد ذلك واضحاً في النزاع بين الأمين والمأمون (٩) والذي سنتكلم عنه باسهاب . ويقول ابن الجوزي « كان طلاب السلطة يستعينون في حروبهم بعضهم على بعض ويعدون بالآلاف ، فقد كان مع ابي دلف عشرون الفاً من الصعاليك . » (١٠)

هذه هي العوامل السياسية والاقتصادية التي كان لها الاثر الفعال في ظهور هذه الطبقات ؟

عبد الجليل علي الطاهر

---

(١) يعلق الدكتور عبد العزيز الدوري استاذ التاريخ الاسلامي بدار المعلمين العالية على هذا الحادث بقوله « ان كدا المسجد قد يكون لنعرات دينية لأن مسجد براثا مركز الشيعة وكانت هناك خصومات مذهبية بين العيارين كما يبين ابن الجوزي »

(٢) ابن الجوزي ، المنتظم ج [٨] ص [٥٩ ، ٦٢ ، ٢٢ ، ٤٤ ؛ ٥٩]

(٣) ابن الجوزي ، المنتظم ج [٨] ص [٥٥]

(٤) التنوخي ؛ الفرج بعد الشدة ، ج [٢] ص [١٠٨]

(٥) ابن الاثير ، ج [٩] ص [١٤٥]

(٦) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج [١٠] ص [١٠٥]

(٧) ابن الجوزي ؛ المنتظم ج [٨] ص [٧٢]

(٨) ابن الاثير ، ج [٩] ص [١٤٥]

(٩) الطبري ، ج [١٠] ص [١٧٦]
المسعودي ، مروج الذهب ، ج [٢] ص [٣١٧]
الأربلي ، خلاصة الذهب المسبوك ، ص [١٣٣]

(١٠) ابن الجوزي ، تلبيس ابليس ص [٣٩٢]